التصوف الإسلامي

نشأته وأصوله

للمستشرق الإنجليزي الدكتور رينولد نيكلسون
الأستاذ بجامعة كمبردج

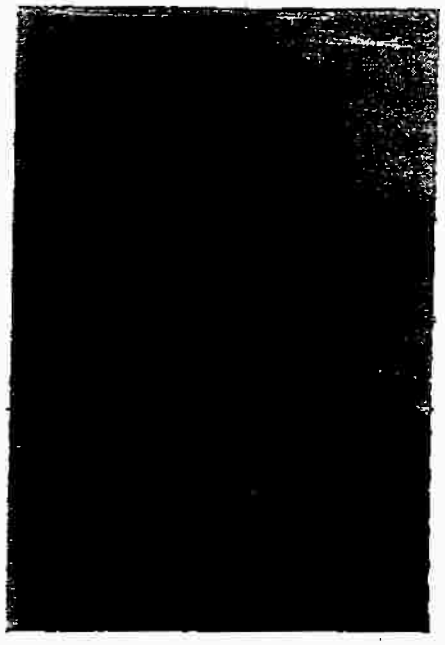

يعدّ الصوفيون الحسن البصري واحداً من جماعتهم. والواقع أنه كان إلى حد بعيد يعلّق أهمية عظمى على الاستقامة النفسية، ولم يكن قانعاً بالعبادات الظاهرية فحسب. ولقد قال: «مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة[1]» بيد أنه على الرغم من أن بعض أقواله الواردة فى التراجم المتأخرة تؤيد الزعم القائل بأنه كان صوفياً عميقاً، إلا أنه ليس ثمت شك فى أن تصوّفه — إذا جاز أن ينعت بهذا الاسم — كان من النوع الشديد الاعتدال؛ وأنه كان فى حاجة قصوى إلى الحمية والهيام اللذين نجدهما عند الصدّيقة الورعة رابعة العدوية التى تربطها به الأقاصيص[2]

ولقد اختلف الصوفية أنفسهم فى تفسير أصل اسم «الصوفى» وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى متباينة، ومن بين الاشتقاقات التى ذكرت ثلاثة تستحق عناية الباحث وهى التى تربطها بكلمة «سوفوس[1]» اليونانية (المقابلة لـ wise فى الانجليزية) أو صفا[2] أو «صوف»

أما الاشتقاقان الأولان فلا يدعمها أى أساس لغوى[3] ولسنا بحاجة لنقاش بهما. ولو أن الاشتقاق من «صفا» مقدم لدى من يعتد به من شيوخ الصوفية، ومقبول على العموم فى الشرق[4]. والسبب فى هذا الترجيح يتضح لنا من مثل هذه التعاريف كقولهم: «الصوفى من يحفظ قلبه صافياً لله[5]» و«الصوفية الاصطفاء» وإذا فهمناها على هذا الاعتبار فقد صارت للكلمة دلالة سامية هيأتها للاختيار دون سواها

ومهما يكن الأمر فإنه يمكن إرجاعها إلى أصل ضئيل، ذلك أنه كان من مألوف عادات المتقشفين والزهاد عادة فى العصور الأولى من الإسلام وهي لبس الصوف لما كانوا عليه — كما يقول ابن خلدون — من مخالفة الناس الذين يرفلون فى الثياب الفاخرة، ولهذا فإن اسم «سوفى[6]» الذى يدل لأول وهلة على المتقشف المرتدى الصوف صار كمدلول الفاووق على الرهبان الكابوشيين؛ وطبقاً لما يذكره القشيرى أصبح هذا اللفظ شائع

---

(١) القشيرى: الرسالة القشيرية ص ٦٣ السطر الأخير (ص ٥٤ طبعة مصر ١٣٤٦هـ)

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن القشيرى المتوفى سنة ١٠٧٣ م وأحد القدامى الذين كتبوا عن التصوف لم يدرج الحسن البصرى بين مشايخ الصوفية الذين ترجم لهم فى رسالته (ص ٨ — ٣٥) ولم يتجاوز ذكره إياه ست مرات خلال رسالته، ولم يزد القشيرى على ماجاء به الكلابى من أقوال الحسن شيئا

Cf. Noeldecke: Sufi. (Z. D. M. G.) vol. 48. P. 45. (١)

(٢) يقول أبو الفتح البستى:

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا ... فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنسب هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفى حتى سمي الصوفي

(٣) يقول القشيرى (ص ١٢٦ س ٣) وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف ... فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف؛ ومن قال إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفى، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة؛ وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم فى الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة إلى الصف — المترجم

(٤) وردت الاشارة إلى كلمة «صفاء» ١٣ مرة فى التعاريف المتعلقة بكلمتى «صوفى والتصوف» فى كتاب تذكرة الأولياء للتصوف الفارسى المعروف فريد الدين العطار المتوفى حوالى ١٢٣٠م بينما كلمة «صوفى» لم تذكر إلا مرتين فقط

(٥) قائله جنيد البغدادى (؟ ٩٠٩ — ١٩١٠م) أحد مشاهير شيوخ الصوفية

(٦) يمكن أن يقرر الآن فى اعتقاد جازم أن كلمة «صوفى» نشأت فى الكوفة إبان القرن الثانى للهجرة، وكانت فى بادئ الأمر مقصورة على متصوفي العراق، ومنذ ذلك الوقت أخذ التطور الأول للتصوف فى الظهور فى الآراء الشيعية والافريقية

التداول قبل نهاية القرن الثانى للهجرة أعنى منذ عام ٨١٥ م ؛ مع أنه فى خلال هذا الوقت أخذت حركة الزهد فى الإسلام تصطبغ إلى حدٍّ ما بصبغة جديدة[1] . ولا بد أن معنى صوفى — بغرض وجود الكلمة إذ ذاك — قد أصابه بعض التغيير . ويخيل إلىّ أن هذا اللقب الذى نحن بصدده الآن يعين نقطة انتقال من الزهد السنى ، وأنه — كما يقرّر الجامى — قد أطلق أولاً على أبى هاشم الكوفى المتوفى قبل سنة ٨٠٠ م الذى أسس « خانقاه » للصوفية فى الرملة بفلسطين . ومهما يكن الأمر ، فإن الفارق بين الزهد والتصوف (ذلك الفارق الذى هو على وجه العموم كالتفرقة بين الحياة الطهرية Via Purgative وبين طريق الكشف Via Illuminative فى التصوف الغربى فى القرون الوسطى) أقول إن هـذا الفارق قد أخذ فى الظهور قبل انصرام العهد الأموى ، وسرعان ما تقدم فى صدر العصر العباسى تحت تأثير الأفكار الأجنبية وعلى الأخص الفلسفة اليونانية . ولندع الكلام عن مدى تطوّر هذه الحركة الأخيرة للكلام عنها فى فرصة أخرى وسنتناول الآن فى إيجاز أصل الصوفية كما تسمى عادة ، والظاهرة الأولى للدوافع الخاصة التى قامت عليها

* * *

أما فيما يتعلق بأصلها فلسنا نستطيع أكثر من نقل الملاحظات التى قدم بها ابن خلدون لفصله عن الصوفية فى مقدمة كتابه التاريخى الجليل[2] حيث يقول : « إن هـذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوّفة »

من هذا يتضح لنا أن التصوف — إذا لم يكن فى أصله تطوّراً لحركة الزهد التى كان الحسن البصرى ممثلها البارز كما رأينا — قد نشأ على كل حال من هـذه الحركة وتفرع عنها . ولم يكن التصوف نظاماً تأملياً كمرطقة المعتزلة ، ولكنه إيمان عملى وقاعدة للحياة ، فيقول الجنيد[1] : « ما أخذنا التصوف من القيل والقال ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات »

وكان الصوفيون القدامى زهاداً نسّاكا ، كما كانوا أيضاً أكثر من ذلك ، ذلك أنهم إما طلعوا على الناس بالجوهر الروحى والرمزى الموجود فى الإسلام ، أو أنهم أدخلوه فيه إذا لم يكونوا قد وجدوه حينذاك . ويقول السهروردى[2] : « التصوف غير الفقر ، والتصوّف غير الزهد ، والتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهداً فقيرا » ثم يمضى بعد قليل فى شرح الخلاف فى قوله : « الفقير فى فقره متمسك به متحقق بفضله ، يؤثره على الغنى متطلعاً إلى ما تحقق من العوض عند الله لحديث[3] نبوي ، فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الفانى ، وعانق الفقر والقلة ، وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض ، وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها ، والصوفى يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة ، بل للأحوال الموجودة ، فإنه ابن وقته ، وأيضاً ترك الفقير الحظ العاجل ، واغتنام الفقر اختيار منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة فى حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائماً فى الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة فى صورة فقر ولا فى

(١) يقول السهروردى « لم يكن هذا الاسم (الصوفى) زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقيل كان زمن التابعين ، ونقل عن الحسن أنه قال رأيت صوفياً فى الطواف ... وما روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء » وهـذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً ، وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة لأنه فى زمن الرسول كان أصحابه يسمون الرجل صحابياً ، وبعد انقضاء عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمى من أخذ منهم العلم تابعياً » المترجم

(٢) المقـدمة (طبعة بيروت ١٩٠٠) ص ٤٦٧ و ص ٨٥ — ٨٦ ج ٣ من ترجمة De Slane الفرنسية ، وقد أسهب السهروردى فى شرح التصوف فى كتابه عوارف المعارف (المطبوع على هامش الاحياء للغزالى طبعة مصر ١٢٨٩ هـ) ج ١ ص ١٧٢ وما يليها ، راجع أيضاً ما كتبه الأستاذ براون عن القشيرى فى كتابه A Lit. of History of Persia ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(١) السهروردى : عوارف المعارف (على هامش الاحياء) ص ١٣٦

(٢) السهروردي : شرحه ص ١٤٥

(٣) إشارة إلى الحديث النبوى الشريف « يدخل فقراء أمتى الجنـة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام » المترجم

صورة غنى ، إنما يرى الفضيلة فيما يوفقه الحق فيه ويدخله عليه »

ومفتاح التصوف نكران الذات وعدم الأثرة أو بمعنى آخر « الحب » ومع أن هذه الفكرة ليست غريبة بأكملها ، إلا أنها كانت بعيدة جداً عن أن تكون معروفة للمسلمين الأتقياء الذين كانوا متأثرين تماماً بقوة الله وبطشه أكثر من رحمته وغفرانه .. وإن جل تاريخ التصوف لهو مناهضة التفرقة غير الطبيعية بين الله والإنسان ، وتبعاً لذلك لا أرى ثمة ضرورة تدعونا للبحث عن أصل المذاهب الصوفية في غير الاسلام ، على الرغم من أنه من الخطل ألا نذكر الأثر المسيحي الذي أثر ولا بد في الحركة في طورها الأول .

أما الطابع التفكيري الذي أشربوه شيئاً فشيئاً ، والذي بدلهم على مر الزمن فقد كان بين مد وجزر وارتفاع وانخفاض طوال العصر الأموي وطيلة قرن تقريباً بعد تقلد بني العباس مقاليد الخلافة والحكم . ولا يزال الصوفيون الأوائل ينهجون منهج السنة ، فصلهم بالإسلام نسبياً كصلة متصوفي الأسبان في القرون الوسطى في الكنيسة الكاثوليكية . ذلك بأنهم كانوا يعلقون كبير أهمية على بعض النواحي الخاصة في التعاليم الإسلامية ويولونها جل اهتمامهم بدرجة تجعل النواحي الأخرى تكاد تكون في حيز العدم . وهم لا ينهمكون في علم الكلام Dialectic ولكنهم يكرسون أنفسهم لمسائل تتعلق باللاهوت العملي ، وإن نكرانهم للذات وتقشفهم البالغ أقصى نهايته وتقواهم الحادة واعتزالهم ... كل هذه الأمور جعلت خواص رسالتهم الأولية توصف بالذهول

ترجمة : ع . ع

قصة الشعر العالمي

ع

القاضي عمر

للأستاذ عبد الغني سلومة

تطلب من المؤلف ، ومن المكاتب الشهيرة

من شهداء الإسلام

عمار بن ياسر

للأستاذ كامل محمود حبيب

« أبشروا آل عمار فان موعدكم الجنة »
(حديث شريف)

وقف بباب دار الأرقم رجل آدم طوال أصلع أشهل العينين بعيد مابين المنكبين... وقف يردد بصره فيما حوله وإن الشيطان ليوسوس له يريد أن يثنيه عن عزمه ، وإن قلبه لينتفض مما استولى عليه من الرعب . وكيف لا يستلبه الفزع من بعض عقله وهو في هذا البلد وحيد ؛ فما من عشيرة تحميه ، وما من أهل يدفعون عنه الأذى ؛ وقريش من ورائه في الصولة والسلطان أشداء على صحابة محمد ورفاقه ، يصبون عليهم فنونا من القسوة والعذاب في غير رحمة ولا شفقة ؟ واصطرع في رأس الرجل عاملان : هنا النبي الكريم يشرق النور الإلهي من جبينه فيسطع متألقاً يجذب اليه جماعة ممن رضي الله عنهم ، وهناك قريش لا تستطيع أن تنزل عن كبريائها في هوان وذلة وهم سادة القوم وأمراؤهم فكيف يلقون السلم في ضعة ؟ كلا ، بل أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون

أفينكص الرجل على عقبيه ليرتدي في الغواية مرة أخرى ويكف على أصنام من حجارة لا حول لها ولا طول ، أم يندفع